الصَّاحِبُ ابْنُ العَديمِ
سَيخُ الخطَّاطينَ
(586 ـ 666هـ)

أعزَّائي وأَحبَّائي:

كمالُ الدِّينِ ابنُ العَديمِ، أَو الصَّاحبُ ابْنُ العديمِ، شَيخُ الخَطَّاطينَ، وأَمينُ المُؤَرخينَ، قاضي القُضاةِ، المعروفُ بِالسِّيادة والرِّياسَةِ، وصاحبُ الملوكِ والأُمراءِ والسَّلاطينِ، واحِدٌ مِنَ العُلَماءِ الأَنْجاب المَشهودِ لَهُمْ بِغَزارِة العلمِ وسِعَةِ المَعرفَةِ، والاطِّلاعِ الوافِرِ على علومِ ومَعارفِ عَصرِهِ.

عُرِفَ الصَّاحِبُ ابْنُ العَديمِ بِجودَةِ الخَطِّ، وحُسْنِ الكتابَةِ، وبِإتقانِهِ كتابَةَ الخَطِّ العَربيِّ بمختلَفِ صنوفِهِ وأَنواعِهِ، وبشكلٍ خَاصٍّ خَطِّ النَّسْخِ والرِّقاعِ، حَتَّى لَقَّبهُ بَعضُ المُؤَرخين بِشَيخ الخَطَّاطينَ.

وفضلاً عَنْ ذَلِكَ، هُوَ كاتِبٌ أَمينٌ، وأديبٌ لامِعٌ، ومُؤَرخٌ يَتمتَّعُ بعلمٍ سَاطِعٍ قد وَرِثَ الفَضْلَ والعِلمَ والسُّؤدُدَ عَن آبائِهِ وأجدادِهِ الّذينَ يمتَدونَ بِنَسَبِهم العَربيِّ إلى أُصولٍ عريقةٍ ضاربَةٍ في التَّاريخ والزَّمَنِ.

الصَّاحِبُ ابْنُ العديم ارْتَبَطَ اسْمُهُ واسمُ عائِلَتِهِ بِالمدينةِ الشَّهباءِ حَلبَ، وفي مُختلفِ العُصورِ والحُقبِ فيما بَعْدَ عَصرِهِ، ما ذُكِرَتْ مَدينَةُ حَلبَ إلا وذُكِرُ ابْنُ العَديم، لأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ أَرَّخَ لها كتاباً موسوعياً، خلَّدَ فيهِ أَمجادَها وتاريخَها العَريقَ كحاضِرَةٍ مِنْ حَواضِرِ بِلادِ العَربِ والإِسلامِ، حَيثُ تَعاقَبَتْ فيها المَمالِكُ والدُّوَلُ، وتَناوبَ على حُكمِها المُلوكُ والسَّلاطِينُ والأُمراءُ، وانْدَحرتْ على أَسوارِها جَحافِلُ جيُوشِ الغُزاةِ، الَّذينَ حاوَلوا كثيراً مُناوَءَةَ أُمَّتِنا العربيَّة والإسلاميَّةِ وطَمْسَ مَعالِمِ مَجدِها وحَضَارَتِها، فَما اسْتطاعوا بِها كيداً أَو هَزيمةً، وبَاؤوا بِفَشلٍ وخُسْرانٍ مبينٍ.

وفي وقتٍ عَصيبٍ على هَذِه الأُمَّةِ، غَدرَ بِها الزَّمانُ بتَفَرُّقِ كَلمَتِها، وشَتاتِ صُفوفِها، واخْتِلافِ حُكَّامِها، فَتمكنَ بِهم الذُّلُّ والهَوانُ، وَوَقعوا في قَصيدةِ غُزاةِ الشَّرقِ، ولَمْ يرضَ الصَّاحِبُ ابْنُ العَديم أَنْ يتولَّى مَنْصباً في ظِلِّ سَيطرةِ الغُزاةِ على بِلادِهِ وأَوطانِهِ، ورفَضَ بِجَسارَةٍ وجُرأةٍ عَرضَ سُلطانِ السَّفاحينَ والجَزَّارينَ «هولاكو» المَلكِ التتاريِّ الّذي عُرفَ بِغَدرِهِ لِكُلِّ مَنْ يَقفُ بِوَجْهِهِ، أو يعارضُ لَهُ طلباً.

فالصَّاحِبُ ابْنُ العَديم، لا تَأْخذُهُ بِاللهِ لومةَ لائمٍ، ولا يطلبُ العِزَّة والمِنْعَةَ إِلَّا مِنْ رَبِّهِ، وقَدْ أَبْهَرتْ هَذهِ النَّفسُ الذَّكيَّةُ والأبيَّةُ الملوكَ والسَّلاطينَ الّذينَ عاصَرَهُمْ ولازَمَهُمْ، فَحسبوا لشِخصِهِ حِسَاباً وقَدَّروا لِعِلْمِهِ مَنْزِلَةً، فَهو قَدْ شَغَلَ الملُوكَ والسَّلاطينَ بِجَراءَتِهِ، كَما شَغلَ النَّاسَ بِعلمِهِ.

فَمَنْ هو الصَّاحبُ ابْنُ العَديم.

❁ ❁ ❁

هُوَ أَبو القَاسِمِ، عُمَرُ بْنُ أَحمدَ بْن أبي الفَضلِ هِبَةِ اللهِ بِنِ أبي جُرادَةَ، المَعروفُ بِالصَّاحِبِ ابْنِ العَديمِ، الملقَّبُ بِكمَالِ الدِّينِ، الهَوازِنيُّ العَقيليُّ الحَلبيُّ، وأَبوهُ أَبو الحَسَنِ أَحمدُ بْنُ أبي الفَضلِ قَاضي قُضَاةِ حَلبَ.

ولِدَ الصَّاحِبُ ابْنُ العَديمِ في مدينَةِ حَلَب عامَ (586) هِجريَّةً، ونَشَأَ وترعرعَ فيها مُكِبّاً عَلى العِلمِ في صُحبَةِ أَبيهِ يَسْمَع فيه، ويُسافِرُ مَعَهُ إلى حواضِرِ المُدنِ الكُبرى في بلادِ العربِ والإسلام.

وقَبلَ الخَوضِ في تَرجمَةِ حياةِ ابنِ العَديمِ، لابُدَّ لَنا أَنْ نَقِفَ وقفةً يسيرةً نَسْتَطلِعُ خِلالَها نَسَبَه العربيَّ العَريقَ، فَيرجِعُ نَسبُ عائلَتِهِ إلى أَبي جُرادَةَ عَامرِ بْنِ ربيعَةَ صَاحِبِ الإمام عَليِّ بْنِ أبي طَالبٍ كَرَّمَ اللهُ وجْهَهُ. وأَبو جُرادَة هو: عامرُ بْنُ ربيعَةَ بْن خُويلد، يَنْتَسبُ إلى ربيعَةَ بْنِ عَقيلٍ إِحْدَى كُبرياتِ قبائِلِ عامرِ بْنِ صَعْصَعَةَ العَدنانيَّةِ.

وكَما يقولُ الأُستاذُ الدكتورُ سُهيل زَكَّار في مُقَدِّمَة تحقيقهِ لِكتابِ بُغيَةِ الطَّلَبِ لابْنِ العَديمِ:

إَنَّ أبا جُرادَةَ عامِرَ بْنَ ربيعةَ قطَنَ مدينةَ البَصرةِ، وفي هَذهِ المدينَةِ عَاشَ آلُ أبي جُرادَةَ وأَحفادُهُمْ، وفي مَطلعِ القَرنِ الثَّالثِ لِلهجرَةِ قدمَ أَحَدُ أَفرادِ أُسرَةِ أبي جُرادَةَ إلى الشَّامِ في تِجارَةٍ، وكانَ اسمُهُ موسَى بْنُ عيسَى. وحَدَثَ آنَئذٍ أَنْ أَلَمَّ بِالبَصْرَةِ طاعونٌ، ولهذا قرَّرَ مُوسَى البَقاءَ في الشَّامِ، واستوطَنَ مدينَةَ حلبَ، وفي هَذهِ المدينَةِ خَلفَ موسَى بْنُ عيسَى أُسرةً نَمَتْ مَعَ الأَيَّامِ عَدداً ومكانَةً وثَروَةً وشُهرةً، وتَملكَت الأَملاكَ، وساهَمَتْ في جميعِ

ميادينِ الحياةِ في حلبَ مِنْ سياسةٍ وعلمٍ وقَضاءٍ وإدارَةٍ وتجارَةٍ، ولهذا غَدَتْ أُسرَةُ آلِ أَبي جرادَةَ مِنْ أَبْرَزِ أُسَرِ حلبَ، حَتَّى حَلَّ الدَّمارُ بِهذهِ المدينَةِ العريقَةِ على أيدي جُيوشِ هولاكو فتفرَّقت هَذهِ الأُسرةُ في المُدنِ والبُلدانِ، ومع مرورِ الأَيّامِ اكتَسَبت اسماً إِضافِيّاً، هُوَ العَديمُ.

وليسَ هُناكَ سببٌ أو تعليلٌ ذَكرهُ المُؤَرخون لِهَذِهِ التَّسميَةِ، وَقَدْ ذَكر ياقوتُ الحمويُّ ـ وكان قَد التَقى بِابْنِ العديمِ في حلبَ ـ اسْتِفسارَهُ مِنْه عَنْ هَذِهِ التَّسميَةِ فقالَ: «سَأَلْتُهُ: لِمَ سُميتُمْ بِبَني العَديمِ؟ فَقَالَ: سَألتُ جَماعةً مِنْ أَهلي عَنْ ذَلِكَ فَلَمْ يَعرفوهُ، وقالَ: هُوَ اسْمٌ مُحْدَثٌ لَمْ يكُنْ آبائي القُدماءُ يعرفونَ بِهِ، ولَمْ يَكُنْ في نِساءِ أَهلي مَنْ يعرفُ بِهذا، ولا أَحْسَبُ إِلَّا أَنَّ جَدَّ جَدِّي القَاضي أَبا الفَضْلِ هِبَةَ اللهِ، كَانَ يُكثرُ في شِعرِهِ مِنْ ذِكرِ العُوَزِ وشَكوى الزَّمانِ مَعَ ثَروةٍ واسِعَةٍ ونعمةٍ شاملةٍ فَسُمِّي بِذَلِكَ».

❁ ❁ ❁

في صِغَرِهِ تَتَلمَذَ على أَبيهِ قَاضي القُضاةِ في حَلبَ، وعَلَى عَمِّهِ أَبي غانمٍ مُحمَّدِ بْنِ أَبي الفَضلِ، وكانَ أبوهُ أبو الحَسَنِ، يَخطبُ في قلعةِ حلبَ أَيَّامَ نُورِ الدِّينِ الزَّنكيِّ، وَوُلِيَ الخَزانَةَ أَيَّامَ وَلدِهِ الصَّالِحِ إسماعيلَ، وقُلِّدَ قَضاءَ حلبَ عام (557) هجريَّةً حَتَّى أَيَّامِ النَّاصِرِ صَلاحِ الدِّين الأَيوبيِّ.

ويُحكى أَنَّ أَبا الحَسَنِ كَانَ رَديءَ الخَطِّ عِندَما يَكتبُ، فَأرادَ أَنْ يُجَنِّبَ ابْنَهُ هَذهِ الخِلَّةَ، فَشجَّعَهُ عَلى إِتقانِ فُنونِ الخَطِّ العَربيِّ وقَواعِدِهِ، فَشَرعَ كَمالُ الدِّين على تَعلُّمِ ذَلِكَ وهُوَ لَمْ

يَزلْ في الثَّانية عَشرَةَ مِنْ عُمره تَحتَ إِشرافِ أَحَدِ العُلماءِ نُزلاءِ حَلبَ عُرفَ بِمعرفَتِهِ بِأصولِ وقواعِد الخطِّ العربي، وهوَ تاجُ الدِّينِ بْنُ البُرفُطيِّ البَغداديُّ، حَتَّى أَتْقَنَ ذَلِكَ وبَرَعَ فيه بَرَاعةً فائقَةً، حَتَّى أَطْنَبَ فيما بَعدُ الحافظُ شَرفُ الدِّينِ الدِّمياطي في وَصفِهِ وقال: «وُلّي قَضاء حَلبَ خَمسَةٌ مِنْ آبائِهِ مُتتاليَةٌ، ولَهُ الخَطُّ البَديعُ والخَطُّ الرَّفيعُ والتَّصانيفُ الرَّائِعَةُ، فيْها تاريخُ حَلبَ».

ثُمَّ لَمَعَ نَجمُ الصَّاحبِ ابْنُ العَديمِ في الحياةِ العلميَّةِ والسِّياسيَّةِ لمدينَةِ حَلبَ، وتَرقَّى في المنَاصِب والوَظائفِ حَتَّى وصَلَ إِلى رُتْبَةِ وزيرٍ في عَهدِ السُّلطانِ غازي بْنِ صلاحِ الدِّين الأيوبيِّ.

❁ ❁ ❁

عِنْدَما اقْتَحَمَتْ جيوش التَّتَارِ بقيادَةِ هُولاكو البِلادَ واحتَّلوا حلَبَ وأَشَاعوا فيها الخَرابَ والدَّمارَ عَرَضَ عَليهِ هولاكو أَنْ يَشْغَلَ مَنصِبَ القضاءِ، لَكنَّ الصَّاحِبَ ابنَ العَديمِ رفضَ ذَلِكَ بِشدَّةٍ، ووَجَدَ أَنَّ مِنَ العَارِ التَّعاونَ، ووَضعَ يَدِهِ بيَدِ مَن احتلَّ بِلادَهُ وأوطانَهُ، وغادَرَ حَلبَ إلى دِمَشْقَ، وهُناكَ لَاقَى الحفاوَةَ مِنْ سُلطانِها، ثُمَّ غادَرَ دِمَشْق إِلى مَدينَةِ غَزَّةَ في فلسطينَ ثُمَّ إلى مِصْرَ. وكَانَ يَحضُّ السَّلاطين مِنَ بَني أيوب، ومِنَ المماليكِ عَلَى الجهادِ وقِتالِ التَّتارِ، وفي مِصْرَ عَمِلَ مع الشَّيخِ العِزِّ بْنِ عَبْد السَّلامِ بدَعم من السُّلطانِ قِطْز مِنْ أَجْلِ تَدبيرِ القُوَّةِ الماديَّةِ والمعنويَّةِ لمحارَبَةِ التَّتارِ، وأشارا عليهِ أَنْ يُعامِلَ رُسلَ هولاكو بِالعنفِ مُعاملةً بِالمثلِ، وشَرطا على السُّلطانِ المُظَفَّرِ قطْز أَنْ يَنْزعَ ما في أَيدي المَماليكِ

مِنْ أَموالٍ وكُنوزٍ مِنْ أَجلِ تجهيزِ الجيشِ المَصريِّ حَتَّى يَفْتيا لَهُ بِوجوبِ خَلعِ الملكِ المنصورِ عَليِّ ابْنِ السُّلطانِ نَجمِ الدِّينِ أيوب لِصِغَرِ سنِّهِ، ثُمَّ القُبولِ بِهِ سُلطاناً على البِلادِ، فَفَعلَ السُّلطانُ قِطْزُ ما شَرطا عليهِ، وصَارَ سُلطاناً على بِلادِ مْصِرَ. وبَعدَ هزيمَةِ التَّتارِ وإِجلائِهِمْ عَنِ البلادِ عادَ ابْنُ العَديمِ إِلى حَلبَ وتَوَلَّى فيها القضاءَ، وكَانَ يتنَقَّلُ في هَذهِ الفَترةِ ما بينَ حَلبَ وحماةَ ودمشقَ والقَاهِرَةِ، وَلِكن اسْتقرَّ بِهِ المقامُ أَخيراً في القَاهرةِ، حَتَّى أَدركَتْهُ الوَفاةُ سَنَة (666) هجريَّةً ودُفِنَ في القَاهرَةِ، وذَكَر المُؤَرخونَ أَنَّهُ تُوفيَ هُوَ والشَّيخُ العِزُّ بنُ عَبْدِ السَّلامِ في عامٍ واحدٍ ولَمْ يَكُنْ بَينَ وَفاةِ الأَوَّلِ والثَّاني مِنْهُما إِلَّا أَشْهر قَليلة.

ويَذكرُ الدَّكتورُ سُهيلُ ذَكَّار:

«وفي كُلِّ مكانٍ زارَهُ ابْنُ العَديمِ كانَ يَلقَى الحَفاوَةَ مِنْ رِجالِ السُّلطَةِ، وكانَ يَلتَقي بِالعلُماءِ وشيوخِ العَصرِ فَيأَخُذُ عَنْهُمْ، ولَقَدْ أَودَعَ ما أَخَذهُ عَنْ عُلماءِ عَصرِهِ، وما رآهُ مِنْ أَحداثٍ أو شارَكَ بِهِ، أَودَعَهُ في كتابهِ «بُغيَةِ الطَّلَبِ في تاريخِ حَلبَ»، حَتَّى غَدَا هَذا الكِتابُ أَشبَهَ بِمَنْجَمٍ للمعلوماتِ لا يَنْضَبُ مَعينُهُ».

كَما خَلفَ ابْنُ العَديمِ عِدَّةَ أَولادٍ تَميَّزوا بِعلمِهِم الغَزيرِ، وتَقلَّبوا في المَناصِبِ السِّياسيَّةِ والعلميَّةِ والقضائيَّةِ، مِنْهم جَمالُ الدِّين ابْنُ العَديمِ قاضي القُضاةِ في حَماة، والقاضي مَجدُ الدِّين ابْنِ العَديمِ، والعالِمَةُ والزَّاهِدَة شَهدَةُ بِنْتُ العديمِ، والقاضي ناصِرُ الدِّينِ ابْن العَديمِ.

لَمْ تُؤَثِّرْ مَشاغِلُ السِّياسَة على عَطاءِ ابْنِ العديمِ وعلى إنتاجِهِ الفكريِّ والعلميِّ، ولَمْ تُعطِّلْهُ عَنِ النَّسخِ والكتابَةِ والتَّأليف، وترك المُؤلفاتِ والمصَّنفات الكَثيرَة التي كانَتْ مِنْ أَنفْس الكُنوزِ العلميَّةِ والتَّاريخيَّةِ والأدبيَّةِ والفِكريَّةِ الَّتي جَادَتْ بِها قَريحَةُ عَالِمٍ لبيبٍ، ومُؤَرِخ ظريف في العَصرِ الأَيوبيِّ والمَملوكيِّ.

ومِنْ أشهرِ الكُتبِ وَالمُؤَلفاتِ الّتي وضَعَها الصَّاحِبُ ابْنُ العَديمِ:

1 ـ بُغيَةُ الطَّلبِ في تارِيخ حَلَب: وهو كتابٌ كبيرٌ في عِدَّةِ مُجلداتٍ، وقد قام باختصارِهِ في كتابٍ آخر أَسماهُ «زُبدَة الحَلبِ في تاريخِ حَلبَ» في ثلاثَةِ مجلداتٍ.

ويُعتَبرُ هذا الكتابُ مِنْ أَهمِّ كُتبِ التَّاريخِ في الحضَارَة العربيَّةِ والإسلاميَّةِ، إِذْ يعكسُ تاريخ المنطقَةِ العربيَّةِ في بلادِ الشَّامِ وفلسطينَ ومصر مُنذُ أَقدمِ العُصورِ إِلى نهايَةِ العَصرِ الّذي عاشَهُ المُؤَلِّفُ، وخَصَّ فيهِ تاريخَ حَلبَ ودورها الحضاريَّ والسِّياسي والعلميَّ والعُمراني في تاريخِ العَربِ والإسلامِ، وكانَ مَنْهجُهُ فيهِ عِلميّاً استقرائياً يَقومُ على المُلاحَظةِ والتَّحليلِ، عارضاً أسبابَ الحَوادثِ والوَقائعِ التَّاريخيَّةِ التي شَاهَدَها أو سَمِعَ عنها. وكما أشارَ العُلماءُ والبَاحِثونَ قديماً وحديثاً، بِأنَّ أَهَمَّ ما يُميِّزُ هَذَا الكتابَ هُوَ نسخُهُ وترتيبُهُ وخَطُّهُ الرَّائِعُ والجميلُ الّذي كَتبَهُ ونسخَهُ ابنُ العديمِ نَفسُهُ، ولا تَزالُ مخطوطاتُ هذا الكتابِ موجودَةً في مكتباتِ لُندن وإستنبول العَامَّةِ، وكَذلِكَ في بَعضِ المكتباتِ الأهليَّةِ في الموصلِ والمدينةِ المنوَّرةِ. كَما أَنَّ مادَّةَ الكِتابِ تُوضِّحُ لَنا جَلياً الثَّقافَةَ العلميَّة والتَّاريخيَّةَ والفكريَّةَ الّتي كانَ يتمتَّعُ بِها ابْنُ العَديمِ.

2 ـ كتابُ الدَّراري في ذكرِ الدَّراري، وكَانَ قَدْ صَنَّفَهُ لِلملَكِ الظَّاهرِ غازي الأَيوبيِّ في حَلبَ.

3 ـ كتابُ ضَوءِ الصَّباحِ في الحَثِّ على السَّماحِ، وصَنَّفَهُ للمَلِكَ الأَشْرَفِ الأَيوبي.

4 ـ كتابُ الأَخبارِ المستفادةِ في ذكرِ بني أبي جرادةَ.

5 ـ كتابُ دَفعِ الظُّلمِ والتَّحري عَنْ أَبي العَلاءِ المعريِّ.

6 ـ كتابُ تبريدِ حَرارَةِ الأَكبادِ في الصَّبرِ عَلى فَقدِ الأَولادِ.

7 ـ كتابُ سوقِ الفاضلِ.

8 ـ كتابُ وَصفِ الطَّبيبِ.

وقد اعتَبرَ المُؤَرخونَ ابْنَ العديمِ مِنْ كبارِ الخطَّاطين في تاريخِ العَربِ والإسلامِ، حَيْثُ كانَتْ لَهُ طَريقَةٌ في الخَطِّ تعرَفُ، وكانَ ثالِثُ ثلاثَةٍ مِنَ النُّساخِ الّذينَ تميَّزوا بِخَطِّهِم الرَّائِع والجميل في تاريخنا العربي والإسلاميِّ، وهُمْ:

ـ أبو عَبْدِ اللهِ بْن مُقلةَ.

ـ عليُّ بنُ هلال.

ـ الصَّاحِبُ ابْنُ العَديمِ.

الأَسْئِلَةُ وَالمُنَاقَشَةُ

1 ـ بِماذا عُرِفَ الصَّاحِبُ ابْنُ العَديمِ؟

2 ـ لِماذا ارْتَبَطَ اسْمُ ابْنِ العديمِ بِمدينَةِ حَلَبَ؟

3 ـ إِلى مَنْ يَنتهي نَسبُ ابْنِ العَديمِ؟

4 ـ ما هي الأَعمالُ والمناصِبُ الّتي تَقَلدَها والِدُ ابْنِ العَديمِ؟

5 ـ لِماذا رَفضَ ابْنُ العَديمِ عَرضَ هولاكو؟

6 ـ بِماذا أشارَ ابْنُ العَديمِ مع العزِّ بن عبد السَّلامِ على السُّلطانِ قِطْز؟

7 ـ لماذا يُعتبرُ كتابُ بغيَة الطَّلبِ مِنْ أَهَمِّ كُتُبِ التَّاريخِ؟

8 ـ ما أَهَمُّ ما يُميِّزُ كتابَ بغيةِ الطَّلبِ؟